

الفصل السابع

علاقة مصطفى كامل بالخدوي في ظل سياسة الوفاق

- ١ — موقف مصطفى كامل من سياسة الوفاق
- ٢ — تقييم علاقة كل من مصطفى كامل وعلى يوسف بالخدوي
- ٣ — تحليل سياسة مصطفى كامل ودوره في الحركة الوطنية
- ٤ — وفاة مصطفى كامل

١ - موقف مصطفى كامل من سياسة الوفاق :

اعتبر مصطفى كامل استقالة المورد كرومر نصرا كبيرا للحركة الوطنية غير أن تعيين جورست واتباعه لسياسة الوفاق قد أقلقه وجعله يشعر بأن ذلك سيؤدى الى بذر بذور الشقاق بين الوطنيين والخديو، وقد عبر مصطفى كامل عن ذلك فى رسالة له الى جوليت آدم فقال « كان سقوط كرومر أمرا مرضيا لنا ، واذا وهبى الله القوة لأستمر فى جهادى خمس سنين فقط لوصلنا لا محالة الى نتائج عظيمة^(١) » ثم ذكر أن اختيار جورست قنصلا جنرالا لانجلترا فى مصر من شأنه أن يبطئ أمد الجهاد لأن خطته ستقوم على الملاينة والولاء للخديو برد بعض سلطته اليه أملا فى تخدير الحركة الوطنية ، أو بذر بذور الشقاق بين الوطنيين وحاكمهم الشرعى ، كما أوضح « أن السياسة الانجليزية ما زالت تعتقد اننا طوع ارادة الحاكم ، وأنه ليست لنا ارادة ذاتية منبعثة عن شعورنا » وطالب بأن تكون « السياسة الوطنية الصحيحة التى يمكن اتباعها فى مثل هذا الموقف هى بلا ريب ترقيب السياسة الانجليزية بكل حذر مع الابتعاد عن التعرض للخديو اذا هو اتفق مع جورست »^(٢) .

ونتيجة لسياسة الملاينة التى اتبعها جورست صرح الخديو بأنه مستعد للتعاون مع المعتمد البريطانى ، كما ذكر أن الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر وأنه لا فائدة من استبدال احتلال باحتلال ، ومعنى ذلك أن الخديو أوضح رغبته فى مشاركة المعتمد البريطانى فى

(١) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية ص ٢٨٥ .

(٢) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

حكم مصر حكما مطلقا^(٣) لذلك فان مصطفى كامل لم يحجم عن انتقاد هذا الحديث فكتب فى اللواء « ان تصريحات الجناب العالى لا تقيدها ماى حال من الأحوال . . وأن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده ، أو بيد المعتمد البريطانى . أو بيد الاثنيين معا ، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه ، وأن تكون نظمات الحكومة دستورية نيابية^(٤) » ثم أوضح استقلال الحركة الوطنية عن الخديو فقال « ان سمو الخديو بعيد عن الحركة الوطنية ، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال ، فهو ان قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه واستمال أمته اليه ، وان عمل ضدها أضر بنفسه وعرشه ونفرت أمته منه ولكنه فى الحالتين لا يستطيع الأضرار بهذه النهضة ، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود ، ومثل هذه النهضة لا يضرها انسان مهما كان قويا وعظيما^(٥) .

ثم ذكر « ان مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالى حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعا لعواطفهم وشعورهم اصلاح حالة بلادهم ، وترقية شئونهم ومنحهم الدستور ، وان هذه المطالب ليست صادرة بايعاز من كبير أو أمير^(٦) » .

وعلى كل حال فبالرغم من أن الحزب الوطنى قد حرم نتيجة لسياسة الوفاق من نصير قوى هو الخديو فان ذلك لم يفت فى عهد زعامته^(٧) ، لأنه كلما أمعن عباس الثانى فى اقراره بالتدخل الأجنبى

(٣) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٥٠ .

(٤) اللواء فى ٢٦ مايو ١٩٠٧ .

(٥) اللواء فى ٢٧ مايو ١٩٠٧ .

(٦) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٥٠ .

(٧) د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ١٩٨ .

وتسليمه للانجليز التف الشعب حول الحزب ووقفوا بجانبه مما جعل الحزب يزداد اقتناعا بالاعتماد على شعبية الجماهير بدلا من الاعتماد على الخديو أو فرنسا أو الدولة العثمانية .

ونتيجة للسياسة التي اتبعتها جورست فى التربص بالحزب الوطنى أخذ الحزب فى تنويع أسلوب عمله السياسى لكشف أساليب جورست الملتوية وتوعية الجماهير^(٨) ، فكتب سيد على أحمد أحد كتاب الحزب مقالا فى اللواء أوضح فيه محاولات جورست شطر الأمة الى قسمين يفصل الراعى عن الرعية ليتخذ من أحدها ظهيرا على الآخر^(٩) .

وظل الحزب الوطنى يئنه الأذهان الى خطورة سياسة جورست كما ظل ينادى بوحدة الصف لمواجهة مخاطر السياسة الجديدة .

تقييم علاقة كل من مصطفى كامل والشيخ على يوسف بالخديو :

حرص مصطفى كامل على ضرورة اتباع سياسة ودية تجاه الخديوية وتقوية الروابط بينه وبين الخديو للاستفادة منه فى شد أزر الحركة الوطنية ، وبالرغم من تسليم الخديو فى حادثة فاشودة وموافقته على اتفاقية السودان فان الوطنيين قد التمسوا له العذر بعض الشيء ، وليس معنى ذلك أن الحركة الوطنية كانت ربيبة القصر بل أن مصطفى كامل كان يرى ضرورة المحافظة على العلاقات الودية بين الطرفين حتى لا ينفذ الاستعمار من خلال الفرقة لتأكيد نفوذه بشرط ألا يؤثر ذلك على المطلب الأساسى وهو الجلاء ، ولكن لما توالى خضوع الخديو للاحتلال جعل علاقة مصطفى كامل به تفتت كما جعلته يفكر فى الاستقلال بالحركة الوطنية عن الخديو وعدم الاعتماد عليه لأن فى ذلك تعظيما

(٨) يونان لبيب : المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٩) اللواء : العدد ٢٧٦٩ فى ٣/١٠/١٩٠٨ تحت عنوان « السياسة الخفية والمعتمد المستتر » .

لشأن الحركة الوطنية وبوجه خاص فى نظر دول أوروبا التى كانت تعتقد أن الحركة الوطنية فى مصر ليست الا صنيعة للخديو ومن غير وحى الشعب بل من وحى ولى الأمر^(١٠) فبادر مصطفى كامل بكتابة خطاب الى الخديو بعد مقابلته فى ديفون يعلن عن قطع صلته به . ومن هنا تتضح طبيعة العلاقة المستقلة بين الخديو ومصطفى كامل لذلك فالتقول بأن مصطفى كامل كان عميلا للخديو أمر يخالف الواقع لدرجة أن الخدير عباس الثانى اعترف بذلك فى مذكراته فقال « لقد قيل فى أيام كفاح مصطفى كامل العنيفة أنى كنت خصمه ، وقيل أيضا أنه صنيعتى ، وليس هناك ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذى قيل . ان مصطفى كامل لا ينتمى الا الى نفسه ، لقد كان رجلا من الصفوة عاش بايمانه ومات بايمانه ، أما أنا عباس حلمى فانى ما كنت أبدا خصمه ، وما كنت أبدا وحيه ، ولم يكن صنيعتى بل كان رائدا جنديا يحارب تحت راية مثله الأعلى^(١١) .

ولقد قامت علاقة مصطفى كامل بالخديو تبعا لمواقف الخديو تجاه الاحتلال فقد اتخذ مصطفى كامل موقف المعارضة منه حين تنكر للحركة الوطنية ، لذلك يمكن القول بأن الخديوية عند مصطفى كامل كانت أداة من أدوات الكفاح وليست غاية وان مصطفى كامل اتخذ من الخديو وسيلة لتوحيد سياسة الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال^(١٢) .

ومع أن مصطفى كامل حاول ألا تصل علاقته بالخديو الى درجة النزاع الواضح حتى لا يعطى للانجليز الفرصة لتعميق ذلك الخلاف فإنه لم يكف عن توجيه النقد اليه كلما تقرب الى الاحتلال فلم يسكت على وقوف الخديو تحت العلم البريطانى أثناء استعراخ جيش الاحتلال

(١٠) عبد اللطيف حمزه : ادب المقالة الصحفية ج ٥ ص ٦٤ - ٦٥ .

(١١) جريدة المصرى العدد ٤٨٣٨ فى ١٧ مايو ١٩٥١ تحت عنوان مذكرات الخديو عباس حلمى الثانى .

(١٢) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ص ٥٩٣ .

فى نوفمبر ١٩٠٤ بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا بل انتقد ذلك بشدة
جوحا أن ما فعله الخديو يمثل اهانة للكرامة القومية^(١٣) كما انتقد
مصطفى كامل انصراف الخديو الى مصالحه الخاصة^(١٤) ووقوفه بجانب
الشيخ على يوسف فى قضية الزوجية ، يضاف الى ذلك انتقاد مصطفى
كامل لحديث الخديو الى المستر دايسى حينما نفى عن نفسه تهمة العمل
ضد الاحتلال ومدح أعمال كرومر^(١٥) ومن ذلك يتضح أن مصطفى كامل
كان يتخذ من الخديو أداة لتحقيق أغراض الحزب الوطنى وقد أكد ذلك
المستر بلنت بقوله ان مصطفى كامل ندد بالخديو فى حديث معه يوم
١٩ ديسمبر ١٩٠٦ فقال ان جميع أفراد الأسرة الخديوية لا يساؤون
شيئا ويجب ابعادهم عن العرش^(١٦) ، كما ذكر رشيد رضا أن الحزب
الوطنى كان يتخذ من الخديو وسيلة لتوحيد سياسة الأمة على مقاومة
الاحتلال فان ظفرت البلاد بجلاء الانجليز فان الحزب الوطنى يؤسس
لها حكومة لا يكون للخديو ولا لأمثاله أدنى حظ منها^(١٧) .

• وهكذا كان شعار مصطفى كامل الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته
الوطنية ، وكتابته الوطنية ، وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار
بينهما تلازم مستمر فى كافة المواقف .

أما الشيخ على يوسف فقد كان يختلف عن مصطفى كامل فى تعامله
مع الخديو اذ كان مرتبطا بسياسة الخديو متعلقا بأذياله ، فهو معه
يسخط على الاحتلال أم تهدان معه فعندما هادن الخديو الانجليز بعد
فاشودة توقف الشيخ على يوسف عن مقاومة الانجليز كما أنه ضاق
ذرا بمقالات مصطفى كامل التى كانت تنشرها له المؤيد ، مما دفع

(١٣) الرانعى : المرجع السابق ص ١٨٢ .

(١٤) اللواء فى ١٠ ابريل ١٩٠٤ .

(١٥) اللواء فى ٢٦ مايو ١٩٠٧ .

(16) Blunt : My Diaries, Vol 11,p. 169 .

(١٧) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ج ١ ص ٥٩٣ — ٥٩٤ .

الأخير الى انشاء اللواء فى يناير ١٩٠٠ حتى يعبر عن آرائه ويوصلها الى الجماهير بدون قيود^(١٨) وليتخلص أيضا من معكسات الشيخ على له^(١٩) . وقد أحاط الخديو عباس الثانى المؤيد وصاحبه برعائه وشملهما بحمايته وأصبح الشيخ على يوسف يسير فى ركاب الخديو حيث سار^(٢٠) ويقف معه سواء أكان ظالما أو مظلوما فبعد الانفلاق الودى ١٩٠٤ تغيرت سياسة الشيخ على يوسف تجاه الانجليز ، وعذب عن المضايقة بالجلاء وراحة وسافر الى لندن وألقى خطبة طالب فيها المصريين بأن تكون لندن كعنتهم من الآن ، وبعد انفصال الحزب الوطنى عن الخديو وقف الشيخ على يوسف ضد مصطفى كامل علانية مما حدى الطلبة بتظاهرون ضده ويرشقون داره بالحجارة^(٢١) .

وأخذت العلاقات تتوطد بين الخديو والشيخ على يوسف بدرجة ان الخديو كان يستشيريه فى تشكيل الوزارات^(٢٢) ، وخيار الوزراء كما جعله من جلسائه وأحد نصحاءه وحظى بعطفه الذى لا ينقطع^(٢٣) ، خاصة الى ذلك أن الخديو جعل من الشيخ على واسطة فى قضاء حاجاته الخاصة . مثل بيع الرتب وخلافه وقد أوضح د. محمد فريد ذلك فى مذكراته فقال « كان الشيخ أكبر سمسار فى بيع التاب والنيابتن وه . مسائل لأوقاف وقد أثارت موقف الشيخ على الى الية للخديو عدو مصطفى كامل له فاندفع فى حملات عنيفة عليه على صفحات اللواء . كما انتهز فرصة زواجه من ابنة الشيخ السادات غم ارادة والدها وشن عليه حملة قاسية فكتب مقالا فى اللواء تحدث عن « قضية

(١٨) على فهمى كامل : مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا . ١ ص ٤٢٢-٤٢٣ .

(١٩) مذكرات محمد فريد . ملف ٢ ص ٥٨ .

(٢٠) تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد فى مصر ص ٢١٧ .

(٢١) مذكرات محمد فريد ملف رقم ٢ ص ٥٨ .

(٢٢) مذكرات سعد زغلول كراس رقم ٩ ص ٣٨٢ .

(٢٣) احمد شفيق : مذكرات فى مصف قرن الجزء الثانى - القسم

الثانى ص ٧ ، ٢٧ ، ١٠٤ .

الزوجية « أوضح فيه أثر هذه القضية في غضب الرأي العام وأثاره الخواطر كما كتب مقالا آخر بعنوان « من فضيحة الى أخرى » ندد فيه بالشيخ على يوسف واتهمه بالخروج عن مبادئه ، وقد اشتمل هذا المقال على ٢٦ سؤالاً وجهها مصطفى كامل الى الشيخ ومنها : هل الرجل الذى يقيم عشرة أعوام على مبدأ سياسى مرماه الجلاء والاستقلال ثم يتحول عنه الى اطراء الاحتلال ومسالته يعد منافقا أم لا (٢٤) .

كما حاول مصطفى كامل أن يقنع الخديو بمضار خطته فى تأييد الشيخ على يوسف أثناء مقابلة ديفون ، ولكن الخديو لم يقنع برأيه مما دفع مصطفى كامل الى قطع صلته به .

وعلى كل حال فقد روج مصطفى كامل للقضية المصرية ترويجا واسعا حتى انضم اليه الكثيرون ، كما روج الشيخ على يوسف أيضا للقضية المصرية ولكن طريقته فى الترويج كانت تختلف عن طريقة مصطفى كامل وكان تقبل الناس له أقل من تقبلهم لمصطفى كامل فالشيخ على يوسف كان أقرب الى الهدوء والرزانة بينما مصطفى كامل كان أكثر الى الثورية ، ولعل القضية المصرية كانت فى حاجة الى المجهودين معا وقد عبر الخديو عباس عن ذلك بقوله « لا يسعنى الا أن أذكر كل أولئك الذين وهبوا أنفسهم للنهضة الوطنية وأن أذكر من الصحفيين السدد على يوسف منشىء جريدة المؤيد المعروفة فى زمانها بتيمس الشرق ولنذكر أيضا جرائد الزعيم الوطنى الكبير مصطفى كامل باشا « اللواء » وزميله الانجليزى والفرنسى (٢٥) .

كما أوضح الخديو أنه حاول التقريب بين وجهتى نظر كل من الشيخ على ومصطفى كامل ولكنه لم يستطع مطلقا أن يحقق هذا الأمل اذ كان يفرق بين هذين الرجلين نوع من الكبرياء المبالغ فيه ، ومع ذلك فقد

(٢٤) اللواء : العدد ١٦٠٦ فى ٣١ ديسمبر ١٩٠٤ .
 (٢٥) جريدة المصرى . فى ٢٧ مايو ١٩٥١ . مذكرات الخديو عباس الثانى .

كان بوسعهما أن يتفاهما دون أن يتحابا ، وكان لهما من المزايا والفضائل ما يكفي لأن يظفر كل منهما من صاحبه بالتقدير (٢٦) .

وخلاصه القول أن الشيخ على يوسف سار مع الخديو سراء مسخذاً على الاحتلال أم تهادن معه بينما وقف مصطفى كامل مع الخديو عندما ساند الحركة الوطنية واختلف معه عندما هادن الاحتلال لأن الخديوية كانت أداة من أدوات الكفاح لا غاية .

٣ - تحليل سياسة مصطفى كامل ودوره في قيادة الحركة الوطنية :

لقد أعاد مصطفى كامل للمصريين ثقتهم بأنفسهم بعد هزيمة العربيين في التل الكبير ، وذكرهم بماضيهم وجلال تاريخهم في أسلوب سهل مؤثر على سامعيه ، فجرت خطبه على ألسنة الناس وكأنها أناشيد وأغان ، وكان مصطفى يعتقد أن الدين والوطنية متكاملان ولا مجال للعدم بينهما (٢٧) .

ولسنا من القائلين بعصمة الزعيم من الخطأ لأنه بشر ، والبشر معرض للخطأ كما أنه معرض للحواب ، كما أننا نضع في اعتبارنا أن ما كان يمكن اعتباره عملاً عظيماً بالأمس قد لا يعد اليوم كذلك .

وفيما يلي نعرض للاتهامات التي وجهها البعض الى مصطفى كامل ونحاول تحليلها والرد عليها :

١ - قال البعض أن مصطفى كامل حاول ربط مصر بعجلة الدولة العثمانية رغم ضعفها ورغم الأضرار التي تلحق بمصر من جراء ذلك .
وتحليل ذلك يمكن أن بطراً على الذهن عدة تساؤلات وهي :

(٢٦) جريدة المصري : العدد انسابق .

(٢٧) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السيلسي من الاحتلال الى المعاهدة القاهرة - دار المعارف ١٩٦٧ ص ٣٠ .

- (أ) ما هو هدف مصطفى كامل من ربط مصر بالدولة العثمانية ؟
- (ب) ما هي الفوائد والأضرار التي عادت على مصر من هذه السياسة ؟
- (ج) هل كان مصطفى كامل على استعداد لتعديل هذه السياسة إذا أضرت بمصلحة مصر ؟

وعن التساؤل الأول فإن مصطفى كامل تلميذ عبد الله النديم - الذي نادى بأن تكون مصر للمصريين ، وفضل الوطنية المصرية عما عداها - قد دعا الى دعم تبعية مصر لتركيا وضرورة التمسك بالرابطة العثمانية^(٢٨) حتى يطمئن الى أن تركيا لن تنضم الى انجلترا في سياستها الاستعمارية ضد أمانى المصريين^(٢٩) وحتى يثبت بطلان الاحتلال الانجليزي وعدم شرعيته كما أنه رأى في التعاون مع الدولة العثمانية ورقة سياسية ذات فعالية ضد محاولات انجلترا اعلان الحماية على مصر فليس من الحكمة أن ينادى مصطفى كامل بجلاء الاحتلال البريطاني وبالغاء السيادة العثمانية معا^(٣٠) يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل كان يأمل في وجود تكفل اسلامي لمواجهة الخطر الأوربي ، ولا مانع عنده من أن يكون هذا التكفل تحت زعامة تركيا بمعنى أن الولاء لتركيا كان موقفا سياسيا لمسايرة الظروف الدولية التي تحيط بمركز مصر آنذاك فدعوته الى التمسك بالروابط مع تركيا لم تكن على حساب القضية انما كانت لخدمتها .

وقد تساءل مصطفى كامل ردا على مزاعم معارضيه ، ما الذي كان يحدث لمصر لو تنازلت تركيا عن حقوقها في وادي النيل بمعاودة مثل

(٢٨) مصطفى كامل : « المسئلة الشرقية » ص ٢٥٩ .

(٢٩) محمد علوبة : ذكريات سياسية واجتماعية ص ٢٦ .

(٣٠) الرفاعي : المرجع السابق ص ٣٦٠ .

ما حدث فى الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ١٩٠٤ ألم يكن ذلك
ربحا حقيقيا لانجلترا حيث يتسنى لها اعلان حمايتها على مصر .

ان فكرة عدم التعرض للسيادة العثمانية فى ذلك الوقت كان لها
ما يبررها لأن التخلص من هذه السيادة كان أمرا هينا بعد التخلص من
الاحتلال (٣١) .

وقد عبر مصطفى كامل عن ذلك بقوله « وليعلم أعداء مصر أننا
نطلب لها الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض ،
واننا اذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فاننا نعمل كغيرنا نتبع ناموس
الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون (٣٢) » .

ومما سبق يتضح أن رؤية مصطفى كامل للسيادة العثمانية كانت
قائمة من أجل مصلحة مصر ، وان حركة الحزب الوطنى كانت نابعة من
مصر وغاية أمانها الاستقلال (٣٣) .

وعن التساؤل الثانى وهو ما هى الفوائد والأضرار التى عادت على
مصر من محاولات مصطفى كامل ربطها بتركيا ؟ فيتضح أن هذه
المحاولات أرجأت محاولات الانجليز ضم مصر اليهم ، كما فوتت عليهم
محاولات تقسيم مصر وأبرزت دولية المسألة المصرية .

أما عن أضرار هذه العلاقة فانها أبعدت الفلاحين المصريين عن
حركة مصطفى كامل الوطنية بعض الوقت لأن تقربه من الدولة العثمانية
جعلهم يخشون عودة الحكم التركى بجبروته وقسوته ويذكرهم بالكرباج
وقسوة جمع الضرائب .

(٣١) الرانمى : المزجج السابق ص ٣٦٢ .

(٣٢) نفسه ص ٣٦٨ .

١٣٣١ ، اللوا: نى ٢ فبراير ١٩٠٧ تحت عنوان « امانى مصر وآمالها » .

أما عن التساؤل الثالث وهو هل كان مصطفى كامل على استعداد لتعديل هذه السياسة إذا أضرت بمصلحة مصر فاننا نعتقد أنه لو امتد بمصطفى كامل الأجل لعدل خطته تجاه تركيا كما عدل من خطته تجاه فرنسا والخيوط من قبل لأنه كان لا يتوخى غير مصلحة مصر ولا يبحث الا عن سلامتها .

(ب) علاقة مصطفى كامل بفرنسا

كان التجاء مصطفى كامل الى الدول الأوربية وخصوصا فرنسا — ليطالب نجاتها ضد الاحتلال الانجليزي لمصر — أمر تقتضيه الظروف ومع ذلك فقد اتهم البعض مصطفى كامل بأنه كان عميلا لفرنسا ولكن الرد على ذلك هو أن العميل دائما تابع والتابع يصعب عليه أن ينتقد متبوعه ، أما مصطفى كامل فانه لم ينعقد سياسة ولم يتهم على منحج وأسلوب عمل كما فعل مع فرنسا فقد انتقدها علنا^(٣٤) .

حقيقة أن مصطفى كامل كان معجبا بفرنسا فهي البلد الذي تعلم فيه القانون ، وظفر فيه بكثير من الأصدقاء . وتعرف فيه على كثير من رجالات الأدب والفكر والصحافة . واتخذ فيه لنفسه أما روحية هي جوليت آدم ، ورأى فيه كيف تكون الحرية والاخاء والمساواة^(٣٥) ومع ذلك فقد انتقدها وعاب سياستها علنا وأبدى سخطة عليها وبوجه خاص بعد فاشودة والاتفاق الودي ، وقد أوضح ذلك في خطاب له الى جوليت آدم فقال « انى أود أن لا تخفى عنك خافية من أفكارى وحقيقة احساسى نحو فرنسا فأنتى أهيج ضد السياسة المشؤومة التى تقتفى أثرها^(٣٦) » .

(٣٤) فتى رضوان : مصطفى كامل . القاهرة — دار المعارف ص ٢٤٧ .

(٣٥) د . عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية فى مصر . ج ٥ مصطفى كامل صاحب اللواء . القاهرة — دار الفكر العربى . الطبعة الأولى ص ٦١ .

(٣٦) على فهمى كامل : المرجع السابق ص ٢٤٣ .

أما وقد استعان مصطفى كامل بفرنسا فكان أمر تقتضيه الظروف
بفرنسا كانت دائما المنافس الأول لانجلترا ، وهذا أتاح لمصطفى كامل
منابر لم يكن يجدها فى مكان آخر ، فقد وضعت فرنسا صحفها
ومجلاتنا وجمعياتها تحت إمرة مصطفى كامل (٣٧) .

ومع ذلك فان مصطفى كامل لم يعتهد على فرنسا وحدها بل دافع
عن القضية المصرية وأوصل صوت مصر الى كثير من البلاد الأوربية
وحتى انجلترا نفسها سافر اليها مصطفى كامل لتوضيح قضية بلاده .

لقد حاول مصطفى كامل أن يضرب بريطانيا بفرنسا ويخرج بمعركة
بلاده منتصراً ، ولكن تراجع فرنسا المستمر أمام انجلترا أضاع أمله ،
لذلك لم يجد مصطفى كامل بدا من الاعتماد على رأى العام المصرى
فى مواجهة الاحتلال .

(ج) علاقة مصطفى كامل بالخدوي

سار مصطفى كامل على هدى تعليمات أستاذه النديم بالأل يعادى
الخدوي حتى لا تنقسم الأمة كما حدث بين العربيين والخدوي توفيق
لذلك اتخذ مصطفى كامل من الخديوية سندا فى كفاحه ، ولا شك أن
الحركة الوطنية قد استفادت كثيرا بانضمام الخديو اليها ، ومع ذلك
فان هذه الحركة لم تكن ربيبة القصر كما أن الوجود الاحتلالى لم يتسبب
فى ظهور الحركة الوطنية وان كان قد ساعد على نموها (١) فالمتتبع
لجذور الحركة الوطنية أيام مصطفى كامل يجد أنها لم تتبع من فراغ ،
فقد سبقتها ثورة عرابى التى انتهت بالاخفاق : فجاء مصطفى كامل
لكى يبدد ظلام الهزيمة وينير طريق الكفاح الوطنى .

(٣٧) فتحى رضوان : المرجع السابق ص ٢٥٢ .

١ - د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ١٩٠ .

ويجب أن نذكر أن الحركة الوطنية في أول أمرها كانت أضعف من أن تقف بمفردها أمام الانجليز ، لذلك كان ارتباط مصطفى كامل بالخدوي أمر يقتضيه الواقع وتحتمة الظروف ، ومع ذلك قد سائر مصطفى كامل الخديو طالما وقف الأخير بجانب الحركة الوطنية ثم اختلف معه عندما هادن الخديو الانجليز وسائرهم . ومعنى هذا أن مصطفى كامل لم يكن عميلا للخدوي ، وقد أوضح ذلك الخديو عباس نفسه فقال ليس هناك ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذي قيل ، ان مصطفى كامل لا ينتمى الا الى نفسه (٢٨) .

والواقع أن مصطفى كامل اتبع سياسة مترامية الأطراف تعتمد على أساليب متعددة من أجل جلاء الانجليز عن مصر ولم يترك وسيلة للدعاية للقضية المصرية الا ولجأ اليها . فقد كانت رسالته رسالة الاستقلال ، والجلاء في نظره هو الرمز الصحيح للاستقلال لذلك وقف ضد الاحتلال وطرب عندما « رأى الروح الوطنية في مصر قد جرت مع الدم في العروق ، وأن حب الاستقلال صار يسكن كل فؤاد لأنه لا حياة للأمة المصرية بغير ذلك و لا تقدم لها بغير الوطنية العالية (٢٩) » .

لقد كان مصطفى كامل في رأى البعض خياليا متطرفا فقد وصف الشيخ محمد عبده مقالاته بأنها « مجموع نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف (٤٠) » ، واعتبر البعض طلبه للاستقلال سابقا لأوانه (٤١) .

(٢٨) المصري : في ١٨ مايو ١٩٥١ — مذكرات الخديو عباس الثانى .

(٣٩) ضمن خطاب أرسله مصطفى كامل من باريس بتاريخ أول سبتمبر ١٩٠٧ الى أحمد حلمى المحرر باللواء . والخطاب موجود بمتحف مصطفى كامل بميدان صلاح الدين بالقاهرة .

(٤٠) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ص ٥٩٣ .

(٤١) الهلال : الجزء الثالث من السنة ١٦ فى أول مارس ١٩٠٨

والخلاصة أنه إذا كان لمصطفى كامل أخطاء ، فمن الممكن أن يلتبس له العذر في أنه قد ناضل من أجل مصر في شبابه ، كما أنه لم يفتد به العمر حتى تصقله تجارب الشيخوخة ، ورغم ذلك فيصعب على أحد أن ينكر أن مصطفى كامل خدم مصر بعمره القصير أكثر مما خدمها أصحاب التجارب الكثيرة في أعمارهم الطويلة .

وفاة مصطفى كامل

ان المهمة الوطنية الكبيرة التي حملها مصطفى كامل على كاهله وظل يكافح من أجلها بكل جهد قد أنهكت قواه ، ومع ذلك لم يستطع أحد حتى من المقربين إليه أن يجبره على الترام الراحة (٤٢) .

وقد شعر مصطفى كامل بالمرض لأول مرة قبل وفاته بنحو أحد عشر عاما من فرط الاجتهاد في العمل لخدمة وطنه حينما عاد من أوروبا في ١٠ أكتوبر ١٨٩٧ فاستقبله أصدقائه وأنصاره بالحفاوة ولكن لم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أنهك قواه عدة أسابيع فأشار عليه الأطباء أن يقضى الشتاء في حلوان فغفل بمشورتهم (٤٣) ثم عاد الى جهاده الملىء بالمناب . وكان حبه لمصر يفوق اهتمامه بصحته ، وقد عاوده المرض من حين لآخر حتى اعتلت صحته وقد كتب الى جوليت آدم موضحا ذلك بقوله « ان العمل قد أضغاني الى حد أشعر معه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذي أعيش فيه ، وكأن الطبيعة خالفت سنتها اذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى (٤٤) .

ولقد آثر مصطفى كامل الاهتمام بالذفاعة عن قضية مصر على الاهتمام بصحته والسور عليها مما جعل مهام الواجب الوطنى والمسئوليات التي أخذها على عاتقه تنوء بهيكله الضعيف ، وتضطره

(٤٢) أحمد رشاد : المرجع السابق ص ٢٨٥ .

(٤٣) طاهر الطنحى الساعات الأخيرة . القاهرة — دار الهلال .

(٤٤) الراغى : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

جِلال أسفاره فى الخارج الى إهمال العلاج الذى يتطلبه تكوينه النحيف
فى أثناء جادثة دنشواى كان مصطفى كامل يستجم من وهن فى قوته ،
ولكنه ما أن سجع بالحادث حتى ترك الراحة واستأنف جهاده^(٤٥) فهب
من فراش المرض يدافع عن المظلومين ويحارب بقلمه ولسانه الظالمين
وغم الحاح طبيبه عليه بالراحة فكتب فى « الفيجارو » مقالا تحت عنوان
« الى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين » شرح فيه الحادث أمام الضمير
الانسانى^(٤٦) ، فكان لذلك أكبر الأثر فى توضيح ما تتن منه مصر تحت
غير الاجتلال ثم سافر مصطفى كامل الى لندن فوضح للرأى العام
الانجليزى حقيقة أعمال كرومر فى مصر وعندما عاد الى مصر انكب على
العمل لتحقيق للمهام الوطنية التى نالت الكثير من صحته^(٤٧) ويذكر محمد
غريد « أنه عندما عاد مصطفى كامل من أوروبا وذهب لمقابلته بالاسكندرية
على الباخرة وكان الدكتور رمضان بانتظاره بالنوكاندة ، فلما رآه مصفرا
أخضر اللون قال لى همسا ان حالته الصحية غير مرضية ولا بد أن يكون
خصابا بالسل^(٤٨) وتذكر جوليت آدم أنه بعد عودة مصطفى كامل من
انجلترا أصيب بمرض غريب صرح على أثره طبيبه الخاص بأن حياته
فى خطر ، وأنه من المحتمل أن يكون قد دس له السم فى انجلترا^(٤٩)
وقد ألح المرض على مصطفى كامل قبيل وفاته بثلاثة أشهر^(٥٠) وبوجه
خاص بعد وفاة والدته التى حزن عليها كثيرا ، ويتضح ذلك فى رسالة
نه الى مدام جوليت آدم فى ١٥ مايو ١٩٠٧ قال فيها « ان والدتى
العزيزة ، المالكة فؤادى قد فارقت الدنيا يوم الأحد الفائت • ان حزنى
سديد ، وحياتى كادت تنقضى^(٥١) » ومع ذلك فقد مضى مصطفى كامل

(٤٥) احمد رشاد : المرجع السابق ص ٢٨٥ .

(٤٦) طاهر الطنحى : المرجع السابق .

(٤٧) احمد رشاد : المرجع السابق ص ٢٨٦ .

(٤٨) مذكرات محمد فريد : الجزء الأول القسم الأول ص ٣ .

(٤٩) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٦٠ .

(٥٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧١ .

(٥١) على فهى كامل : المرجع السابق ص ٢٨٧ .

فى عمله فظل يغالب المرض ويجاهد ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ترك سرير مرضه ونزل الى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية وهناك ألقى خطبته ، وكانت آخر خطبة له فقد ائتمت به المرض عقب الاجتماع وعاد الى غرفته مريضا ، وفى صباح اليوم التالى بلغه نبأ وفاة صديقه لطيف باشا سليم — أحد مؤسسى الحزب الوطنى وأحد أعلام الحركة الوطنية^(٥٢) وأحد رجال الادارة والقضاء المعدودين فى مصر آنذاك^(٥٣) . فجزع مصطفى لوفاته جزعا شديدا وتدهورت صحته بسبب ذلك^(٥٤) .

وكان مصطفى كامل وهو على فراش المرض لا يدع العمل والتفكير فى خدمة مصر فقد أرسل وهو طريح الفراش وقبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا ضد تصريحات السير ادوارد جراى التى أدلى بها فى مجلس العموم البريطانى واتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فرد عليه بأن مصر لا تقبل عن الأمم الأوربية فى استعدادها للحكم الذاتى وانها ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تحصل عليهما^(٥٥) .

أخذ المرض يشدد على مصطفى كامل الى أن أسلم الروح فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير ١٩٠٨ وقد نشرت اللواء هذا النبأ على صفحاتها فقالت « توفى الى رحمة الله مديرنا العزيز مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطنى فى تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس . لقد أصيب مديرنا باغماء فى الصباح أقلق بالنا وحوالى الظهر

(٥٢) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٥٣) الأخبار : العدد ٢٥٦ فى ٢٩ ديسمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « لطيف باشا سليم » .

(٥٤) كتب مصطفى كامل الى جوليت آدم يقول « اما صحتى فهى بين اليأس والرجاء .. والسبب فى انتكاسى بعد خطبتى راجع الى مفاجأة المنون صديقا لى حميما كان من أشد وأكبر نصرائى المرحوم لطيف باشا سليم » .

انظر رسائل مصرية فرنسية ص ٣٠١ .

(٥٥) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧٢ .

لأح لنا أنه تحسن قليلاً ، فاستأنفنا أعمالنا ، وقد كنا قطعنا ما
فانهيها ، ولكن سرعان ما انتكست وخارت قواه تديجيا ولفظ أنفاسه
الأخيرة عندما كانت الساعة تدق الرابعة^(٥٦) .

وقد انتشر هذا النبأ فى أنحاء مصر وبلغ الحزن منتهاه ولم يكن
الشعور مقصورا على طبقة دون أخرى بل تناول كافة طبقات الأمة^(٥٧)
حتى أن خصوم مصطفى كامل السياسيين قد جزعوا لوفاته^(٥٨) ، كما
أن الحزن لم يكن مقصورا على مصر وحدها بل تخطاها وانتشر فى سائر
العالم الاسلامى^(٥٩) .

وقد شيعت جنازة مصطفى كامل بعد ظهر يوم ١١ فبراير ، وكان
يوما مشهودا لبست فيه الأمة المصرية ملابس الحداد واجتمعت عشرات
الألوف للسير فى الجنازة التى وصفها قاسم أمين بأنه رأى فيها قلب
مصر يخفق للمرة الثانية بعد دنشواى .

وقد اشتركت معظم المدارس فى تشييع جنازة مصطفى كامل .
وكانت كل مدرسة تسير حاملة علمها ، وقد حمل طلبة الحقوق النعش
! للوفوف بعلم مصر على أكتافهم ورغم محاولات الحكومة منع الطلبة
من الاشتراك فى الجنازة فان الطلبة تركوا دروسهم وخالفوا أوامر

(٥٦) اللواء فى ١١ فبراير ١٩٠٨ .

(٥٧) الرانعى : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

(٥٨) رغم ما كان بين مصطفى كامل ولطفى السيد من خصومة سياسية
عقد وقف الاخير كانه مفجوع فى اعز الناس واتربهم اليه ، وكان لطفى السيد
ممن دعوا الى اقامة تمثال لمصطفى كامل .

محمد حسين هيكىل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٣٣ .

(٥٩) الهلال : الجزء السادس من السنة السادسة عشرة فى اول
مارس ١٩٠٨ ص ٣٢٢ تحت عنوان « مصطفى كامل والنهضة السياسية » .

نظار المدارس^(٦٠) وذلك نظرا لما كان يتمتع به مصطفى كامل من نفوذ كبير بين الطلبة^(٦١) .

ولم يستطع المعتمد البريطاني جورست أن يخفى الحقيقة فقد ذكر في تقريره أن جمهورا كبيرا قد تشيع جنازة مصطفى كامل كان أكثرهم من الأفندية وتلاميذ كل مدارس القاهرة الثانوية والعالية تقريبا^(٦٢) كما اشترك في تشييع الجنازة كثير من كبار رجالات مصر وأعيانها وقد نشرت الصحف المصرية بكافة اتجاهاتها نبأ الوفاة وأفردت الأعمدة الطوال من صفحاتها لهذا النبأ . ويذكر على فهمي كامل أنه تسلم ١٣٣٤ برقية ، ٨٤٣٠ خطاب عزاء وان الطلاب ذكورا واناثا حملوا شارة الحداد عليه أربعين يوما بالرغم من معارضة مستشار المعارف دتلوب^(٦٣) .

ولقد ظن الانجليز أن المعارضة قد ماتت بوفاة مصطفى كامل وقات عليهم أنه قد بذر حب الوطنية وسلم البراية مرفوعة لمن أتى بعده كما أرسى دعائم حزب سياسي استطاع ادارة دفعة الكفاح الوطنى ضدهم تحت زعامة محمد فريد .

(٦٠) مذكرات سعد زغلول كراس رقم ٧ ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

(٦١) Landau : op. cit p. 123 .

(٦٢) تقرير جورست عن المالية والادارة والحالة العمومية عام ١٩٠٧ - من جورست للى جرائى . القاهرة - ترجمة المقطم ص ٧٦ .

(٦٣) على فهمي كتاب : المرجع السابق ص ٣١٥ .